قرأت هذا النص المفيد عدة مرات . ورأيت فيه ولع العقاد بالحياة الداخلية التى تطرح ، فيما يقول ، كثيرا من الوقائع أو تترجمها ترجمة مناسبة إلى لغة سيكلوجية ، ورأيت العقاد قد اختار القرن الثالث عامدا أو شبه عامد لأنه يغذى تطلعه الى سبر مظهر من مظاهر الجدل العنيف ، وما يمكن أن يولد من آثار ، وربما كانت الحيوية التى يولع بها عقل العقاد هى حيوية الحوار بين الحكمة والجهالة ، بين اليقين والشك ، بين الرجاء والقنوط . ولو خلص الفكر للحكمة واليقين والرجاء لما استطاع أن يكشف حياتنا الداخلية ومقوماتها . وقد عاش العقاد محاورا يتصور أطراف النزاع . لكن الشىء الذى يوشك أن ينساه القارىء أن القرن الثالث الهجرى يجب أن يكون بفضل هذا النزاع عصرا متفردا له حظ من الغموض . وبعبارة أخرى يجب أن ينظر اليه نظرة التوقير الأثير فى عقل العقاد . وقد يضيق بعض القراء بهذه العناصر المتضاربة ، وبخاصة إذا كان مهموما ببعض الجوانب دون بعض ، أو كان متحيزا لايطيق أسباب الصراع ، ولايطيق بقاء الصراع حيا لايخبو . لكن العقاد ربما يضيق بهذا القارىء . العقاد إذن يوشك أن يجعل القرن الثالث الهجرى رغم ما فيه من بعض الجهالة والظلام والقنوط والآفات ـ قرنا عبقريا . ولم تكن العبقرية فى تقدير العقاد بمعزل عن الخصومة التى لاتخبو .

المهم أن العقاد أصر على أن يجعل القرن الثالث غامضا واضحا . ذلك أحرى أن يشبع رغبته . وماذا يكون وضوح يخلو من أثارة غموض ، وهل لهذا الوضوح الخالص وجود . العقاد إذن صانع صرح التفرد فى الكتابة العربية .

لماذا وقف العقاد عند ابن الرومى ؟ لأنه ـ بعبارة بسيطة ـ وجد فى سيرته وشعره نوعا من هذا التفرد . الإنسان قبلة الإنسان فيما يقول المازنى أيضا . وقد ألف القراء أن يقرءوا تمهيد العقاد لكتابه ، ورضى عن هذا التمهيد قوم وأنكره قوم آخرون . ولكن العقاد مايزال فى هذا الجدل حيث يقول «فالطبيعة الفنية هى الطبيعة التى بها يقظة بينة بجوانب الحياة المختلفة » . ويتساءل العقاد أليست أنواع اليقظة لتلك الجوانب أشتاتا وأخلاطا لاتجتمع فى حصر حاصر ، بلى . فمن المتيقظين لجوانب الحياة من هو عميق الشعور بها ، ومن هو متوفز الشعور ، أو مستقيمه أو منحرفه أو مستفيضه أو محصوره إلى غير ذلك من أنواع الشعور ودرجاته . فالذى تجمعه كلمة اليقظة هنيهة لاتلبث أوصاف اليقظة أن تفرقه كل مفرق . فهل من سبيل إلى إسلاس المعنى وتقريب مقاده للتعريف والتوضيح ؟ نعم ؟ وسبيل ذلك غير عسير . فنحن نقول موجزين إن